أزمة الكتاب

ومصير الكتب

للأستاذ محمد عبد الله عنان

كان القرن التاسع عشر عصر الآلات والاختراعات الصناعية ، فحلت الآلة مكان اليد العاملة فى معظم الصناعات ، وحرم ملايين العمال من العمل اليدوى ، وساد البؤس فى الطبقات العاملة ، واستمر هذا التطور طوال النصف الأخير من القرن الماضى حتى استقرت الصناعة أخيراً على قواعدها الجديدة ، وتهيأت الطبقات العاملة للعمل فى الظروف الجديدة ، وحل العمل الفنى والآلى مكان العمل اليدوى .

واليوم نشهد انقلابا عظيما آخر فى مصاير الانتاج العقلى ؛ فقد كان « الكتاب » حتى أوائل هذا القرن أهم وأنفس غذاء عقلى للطبقات المثقفة ، وكانت قراءة الكتب المختارة أسمى وأمتع وسائل التربية والتهذيب والرياضة العقلية ، ولكن التطورات العلمية والأدبية والاجتماعية التى حدثت منذ الحرب الكبرى كان لها أثر كبير فى تطور الذوق الأدبى أو بعبارة أخرى فى قيمة الكتب وفى مركز القراءة وميول القراء . وليس من ريب فى أن الكتاب قد فقد اليوم كثيراً من سحره وقيمته المادية والاجتماعية ، وقل الاقبال كثيراً على اقتنائه وقراءته ، ولكن ذلك لا يعنى أن منسوب القراءة قد هبط ، فالقراءة بالعكس قد كسبت من هذا التطور بصفة عامة ، وزاد منسوبها بلا ريب تبعاً لازدياد نسبة المتعلمين فى مختلف الأمم ؛ واذا كان الذوق الأدبى قد تطور وخسر الكتاب القيم كثيراً من قرائه ، فان أولئك القراء تحولوا الى ألوان جديدة من الأدب الخفيف والى قراءة الصحف والمجلات . والواقع أن الصحافة أول وأقوى العوامل الجديدة التى أثرت فى مركز الكتاب ومدى انتشاره . ففى ربع القرن الأخير تقدمت الصحافة تقدما عظيما ، وغزت كل ميادين التفكير والعلوم والفنون ، ولم تبق دوريات خبرية فقط ؛ ومعظم الصحف اليومية السياسية ، فى جميع الأمم ، تخصص للأدب والنقد والعلوم والفنون والمسرح والاقتصاد والمالية والرياضة صحفاً خاصة حافلة بمختلف البحوث والشذور القيمة ، هذا عدا القصة الصغيرة اليومية ، وعدا الرواية المسلسلة ، وعدا الصور الكثيرة ؛ ثم هنالك المجلات الأدبية والعلمية ، الأسبوعية والشهرية ، وقد بلغت مدى عظيما من التقدم والذيوع ، وأضحت مسرحا لأعظم الأقلام ، ومعرضاً لمختلف البحوث وأهمها . وتمتاز المجلة على الكتاب بتنوع مادتها ، فهى تجمع بين الفصول الأدبية والعلمية والسياسية ، والقصة والمسرح والأزياء ، ويكاد كل عدد منها يكون كتابا مستقلا بذاته ، وهى دائما متنوعة متجددة ترضى مختلف القراء والأذواق بأكثر مما يرضى الكتاب الموحد الفكرة والموضوع ، والصحافة الأدبية هى بلا ريب أشد خصوم الكتاب ومنافسيه ، وأشدها تأثيراً فى مركزه ومدى انتشاره ، لأنها تبدو فى بعض ألوان من الكتاب ، وتأخذ بالسهل الموجز منها ، حتى انك لترى أحياناً موضوعات وبحوثا خطيرة تشغل فى الكتاب مجلداً أو مجلدات تلخصها المجلة فى فصل لا يتجاوز عدة صفحات ، وربما كان ملخصها مؤلف الكتاب ذاته ؛ هذا الى ماتتوخاه المجلة من اختيار الموضوعات الشائقة والأساليب السهلة التى تغرى كثيراً من القراء على تفضيلها على الكتاب

هذه المنافسة الأدبية القوية كانت وما تزال شديدة الوطأة على الكتاب ، ولم يكن فى وسع الكتاب أن ينافسها ، لأنها تجرى طبقاً للعوامل النفسية وطبقاً لتطور الظروف الاجتماعية ؛ أضف الى ذلك المسألة الاقتصادية أعنى مسألة الثمن ، فالصحف والمجلات تعرض بضاعتها الأدبية على الجمهور بأثمان بخسة يستطيع أن يؤديها الملايين ، معتمدة فى ذلك على كثرة انتشارها وما تجنيه من أجور الاعلانات . ولكن الكتاب القيم لم يستطع حتى اليوم وليس فى الامكان أن ينزل الى هذا المستوى . نعم حاول كثير من المؤلفين والناشرين أن يسايروا هذا التطور فى الذوق الأدبى ، فعمدوا الى اخراج الكتب السهلة الموجزة ، والى معالجة الموضوعات العلمية الخطيرة فى أساليب خفيفة عادية مما يعرف اليوم بتبسيط العلوم ، وهى طريقة تعالج بها اليوم أخطر وأعقد الموضوعات العلمية فى الصحف والمجلات ، وان كانت لا تؤديها دائما بما يجب من الدقة والتحقيق ، وكذلك عمد كثير من المؤلفين والناشرين الى إخراج الموضوعات الخطيرة العلمية والسياسية والاجتماعية وغيرها فى ملخصات صغيرة ، وفى فصول متناثرة ، أو الى جمع القطع المختارة فى كتاب واحد ليكون له بذلك ما للمجلة أو الصحيفة من التنوع ، وعمدوا فوق ذلك الى اخراج هذه الكتب فى

طبعات شعبية رخيصة لتكون فى متناول جميع الطبقات ، ومن المعروف أيضاً أن كثيراً من كتاب القصص العالميين يخرجون اليوم كتبهم فى طبعات شعبية عديدة ، ويتحرون اختيار القصص والحوادث المثيرة والشائقة ، وكثير منهم يفضل كتابة القصص البوليسية ، وقطع السينما لأنها تدر عليهم أرباحا حسنة . والخلاصة أن الكتاب اضطر تحت ضغط هذه المنافسة الشديدة التى شرحناها أن يتطور نوعا وأن يساير الذوق الأدبى والظروف الاجتماعية الجديدة . ولكنه مع ذلك لا يزال بعيداً عن أن يسترد مركزه أو يقاوم هذا التيار الجارف الذى يهدد مركزه وقيمته وتقاليده

وقد غدت السينما والراديو من أشد خصوم الكتاب ، ففى السينما تلخص أو تمسخ أمهات القصص حتى يمكن اخراجها فى صور تلائم الجمهور ، ولا يقع الجمهور منها إلا على الجانب القصصى ، ولا يلمس شيئاً من قيمتها الأدبية أو الفنية . وأما الراديو فهو أشد خطر على الكتاب من كل ما تقدم ، وربما كان هذا الخطر اليوم فى بدايته ، وقد يستفحل كثيراً فيما بعد ، ففى الراديو تنقل اليوم فى سائر انحاء العالم جميع الأنباء والأحاديث السياسية ، ومعظم المحاضرات العلمية والأدبية والنقدية الهامة ، وتذاع فيه ملخصات عن معظم المباحث والموضوعات الخطيرة التى تعنى بها الحركة الفكرية ، ومزيته فى أنه ينقل ذلك كله للسامع وهو جالس فى مكانه الوثير فى المقهى أو المنزل ، لا يكلفه عناء القراءة ، وخطره على الكتاب والحركة الفكرية فى أن الاذاعة الموجزة السهلة تمسخ معظم الموضوعات العلمية والأدبية التى تتناولها ، وتصرف بذلك ملايين السامعين عن قراءتها وتتبعها فى مصادرها القيمة .

***

وفى ظل الطغيان السياسى الذى يسود اليوم بعض الأمم المتمدنة تواجه الحركة الفكرية ويواجه الكتاب أشد المخاطر والأزمات ، ففى بلاد كايطاليا والمانيا وتركيا وبولونيا وروسيا تسودها النظم « الدكتاتورية » ، وتخمد الحريات السياسية والفكرية ، تصطبغ الثقافة والتفكير بنفس الألوان التى يفرضها الطغيان وتقتضيها مصلحته وغاياته السياسية ؛ وحيثما تنعدم حرية الفكر ، تخبو حركة التأليف الحر وتغدو الصحافة والمفكرون والكتاب طوعاً أو كرهاً جنود النظام القائم ، ويطارد المفكرون الأحرار ، وتطارد كتبهم بلا رأفة ؛ وفى ظل هذه الأنظمة الطاغية ، التى يزعم فيها الطغاة وأعوانهم انهم يعبرون عن رغبات الشعب وآماله وتفكيره ، يختفى الانتاج الفكرى القيم ويتحول إلى نوع من الأدب الذليل الخاضع ، يشيد جله بالطغاة ونظمهم ومبادئهم وأعمالهم . وقد شهدنا من مناظر هذا الاضطهاد الفكرى فى العهد الأخير ألواناً شنيعة فى ألمانيا ، فى ظل الطغيان الهتلرى ، حيث طورد جميع المفكرين والكتاب الذين لم يسايروا الطغيان الجديد ولم يرتضوا فظائعه ، ففر منهم من فر خارج ألمانيا ، وقتل من قتل ، واعتقل من اعتقل ؛ وشرد كثير من أقطاب الأدب الألمانى المعاصر ، وحظر على دور النشر الألمانية أن تتعاقد معهم أو تنشر لهم شيئاً ، ومنعت كتبهم من التداول ، وأحرقت كتب كثيرة فى أوائل عهد النازى فى شوارع برلين على نحو ما كان يجرى فى العصور الوسطى على يد محاكم التحقيق ؛ والخلاصة أن الانتاج الأدبى فى المانيا قد أصيب فى عهد الطغيان الهتلرى بضربة مميتة ، وأضحت الثقافة الألمانية والأدب الألمانى الحاضر والصحافة الألمانية الحاضرة صورة متماثلة مملة للمبادىء والنظريات والآراء التى يفرضها الطغيان الحاضر على الشعب الألمانى . وحيثما يوجد الطغيان السياسى يمر الانتاج الأدبى دائماً بهذا الدور ، ويصاب التأليف بمثل هذا العقم والتماثل ويواجه الكتاب أشد المحن .

وهنالك أخيراً روح العصر ؛ فعصرنا عصر سرعة ورياضة ، والسرعة تدفع كل الناس بلا هوادة ، وشغف الرياضة يستغرق اهتمام الشباب وفراغه ؛ فلا يجد من الوقت أو الرغبة ما يحمله على التماس القراءة ، ولا سيما القراءة الرزينة الهادئة . وإذا أتيحت للشباب فرصة القراءة اليوم فماذا يقرأ ؟ الكتب أو المجلات الخفيفة ، المبتذلة غالباً ، لأنه لا يقرأ دائماً للفائدة وانما يقرأ للهو فقط ، ولا يريد أن يبذل جهوداً عقلية فى استيعاب كتب الثقافة الرفيعة ، وهذه الروح السيئة بلا ريب ، من أقوى العوامل فى صرف أنظار الشباب عن الكتاب

***

وهل نحن بحاجة للقول بأن جميع ماقدمنا من العوامل والظروف ينطبق على سير الحركة الفكرية والانتاج الأدبى فى مصر كل الانطباق ؟ إن الكتاب يواجه فى مصر نفس الأزمة الخطيرة التى يواجهها فى جميع الأمم المتمدنة ؛ وقد صرفت الصحافة والمجلات الأدبية والقصصية ولا سيما المجلات الخفيفة

والماجنة أنظار الشباب عن القراءة الرزينة المفيدة ؛ وأفسد الأدب المبتذل ، ولا سيا الأدب الجنسى ذوق الشباب وعقليته ، فانحط مستوى تفكيره وتقديره ؛ وأضحى الكتاب القيم لايجد بكل أسف بين الشباب كثيراً من الأنصار . أضف إلى ذلك ظرف مصر الخاص وهو انتشار الأمية فيها ، وضعف نسبة المتعلمين إلى حد لايزال يزرى بكرامتها ، ولولا ان الشعوب التى تتكلم العربية التى نكتب بها فى مصر تبلغ زهاء سبعين مليوناً ، لكان خطب الانتاج الأدبى العربى مضاعفاً ؛ ومع ذلك فالمعروف أن الكتب العربية القيمة تواجه أشد الأزمات ، وأن الكتاب الذى لايطبع منه سوى ألفى أو ثلاثة آلاف نسخة يمكث أعواماً طويلة قبل أن تنفد نسخه بين السبعين مليوناً من الشعوب التى تتكلم العربية

والخلاصة أن الكتب تواجه أشد أزمة عرفتها فى العصر الحديث . وقد تتفاقم هذه الأزمة ، ويزداد مركز الكتاب حرجا ويزداد ذيوعه كساداً ، ولكن الكتاب لايمكن مع ذلك أن يختفى أو يموت . ذلك أن الكتاب قد ولد مع المدنية الانسانية ، ولبث مدى العصور أقدس متنفس للذهن البشرى ، وما دام الذهن البشرى ينتج ويعبر عما يجول فيه ، فلا بد من التجائه إلى الكتاب ، وقد مر الانتاج الفكرى ومرت الكتب خلال العصور المظلمة بمحن شديدة ، ولاذت بالاختفاء أيام الغزوات البربرية فى عهد الهون والوندال ، ولبثت فى الأمم الأوربية مدى قرون تقبع فى ظلمات الأديرة ، ولم تجد متنفساً وملاذاً إلا فى الدول الاسلامية ، فى ظل المدنية الاسلامية الزاهرة ؛ واستمرت محاكم التحقيق (التفتيش) عصوراً تجد فى مطاردة التفكير الانسانى وفى مصادرة الكتب وحرقها ؛ ولكن هذه الخطوب والمحن كلها لم تخمد جذوة التفكير الانسانى ، ولم تقض على حياة الكتاب ؛ وخرج الكتاب ظافراً من هذه المحن ، وجاءت المطبعة فى فجر العصر الحديث فاستطاع بعونها أن يغمر العالم ؛ ولم تقو عصور الطغيان ونظمه على مغالبة الذهن البشرى ؛ فاذا كان الكتاب يجوز اليوم أزمة فكرية اجتماعية ، نظراً لتطور الحياة والاختراعات العلمية ، فتلك أزمة مؤقتة ، سوف يتاح للكتاب أن يتغلب عليها متى استطاع أن يهيىء نفسه للسير مع الظروف الجديدة فى ألوان لاتغض من قدره ورفيع مكانته ؟

محمد عبد الله عنانه
المحامى

ابراهيم بك مرزوق

و محمد سعيد بك

بقلم الأستاذ محمود خيرت

نقلت الرسالة فى عددها الرابع والخمسين مادونه المغفور له تيمور باشا من حياة المرحوم ابراهيم بك مرزوق وأنه كان شاعراً مجيداً نظم كثيراً من المقطوعات والقصائد . ولكنه مع توسعه فى ذكر مولده ونشأته وأدوار تقلبه فى مناصب الحكومة أوجز كثيراً فى حياته الأدبية مقتصراً على أن المرحوم محمد بك سعيد هو الذى جمع ديوانه ونشره فى سنة ١٢٨٧ هـ ، فلم يتعرض الى شىء من شعره ليعطينا صورة ريّانة من تلك الحياة .

وقد كنت أود لو أن بين يدى ديوان هذا الشاعر الذى لم أهتد اليه فى المكاتب ، فأسد هذا الفراغ ، ومع ذلك فانه لايزال عالقاً فى ذهنى منه هذان البيتان :

لم يُرضنى الهجرُ حتى عُمر الحبيب تقضى
والأرض ضمَّته قبْلى ياليتنى كنت أرضا (أرضى)

وقد لايكون هذا القدر القليل كافياً للحكم على هذا الشاعر من حيث ميوله المختلفة فى مجموعها وعلاقتها بالبيئة التى عاش فيها ، ولكنه على كل حال شاهد صدق على ما كانت عليه نفسه من الرقة وكان عليه أسلوبه من الفخامة والحلاوة والسهولة ، فهذان البيتان مع أنهما من المجزوء تضمنا قصة بحالها يجول فيها الحب وجنّاته ، والهجر وأناته ، والموت وأظفاره ، والدمع وأنهاره ، وهو بين الحبيب الذاهب ، واليأس الغالب ، يعود باللائمة على نفسه التى لم تقنع بالهجر وتجد لذتها فيه ، حتى ضمته الأرض قبل أن تضمه حنايا قلبه الشجى المحترق ، وهو مع كل هذا لايفوته حكم الصناعة فيخرج لنا جناسا لانحس عنده جهدا ولا تكلفاً ولا مللاً ، يجمع بين الندم على عدم الرضى ، والحسرة على فوز الأرض بالحبيب من دونه

***

على أن الذى هدانى الى هذا الديوان وأنا فتى هو نفس